تخليص الابريز

قراءة في اول رحلة عربية إلى باريس

احمد خلف

تناول الرحلات الريادية التي امتلكت حق المواجهة مع عالم تكتشفه للمرة الاولى، يتطلب منا تأملاً كافياً في جوهرها خصوصاً حين تتحول إلى كتابه مخلصة، الغرض منها توعية المتلقي بنوعية ذلك العالم المكتشف، فكثير من الرحالة العرب والمسلمين كتبوا عن سفرياتهم ورحلاتهم وعكسوا لنا انطباعاتهم الخاصة، شأن الرحالة الاجانب، ولعلنا لا ننسى رحلات ابن بطوطة وابن جبير من العرب الاوائل الذين تقحموا وخاضوا غمار التجربة الصعبة، ولعل امتيازهم كان في انهم رواد عالم الرحلات وان كانت لهم في التراث القديم امثولة في السندباد البحري ورحلاته الشهيرة في الف ليلة وليلة! مثلاً هل يمكن تقديم قراءة تحليلية عن كتاب: "تخليص الابريز في تلخيص باريز" باعتباره علامة رائدة في مجال كتب الرحلات العلمية والثقافية؟ ما لم نتعرف على طبيعة الخطاب الذي كان سائداً في عام ١٨٣١ وهي السنة التي عاد فيها رفاعة الطهطاوي مؤلف الكتاب إلى القاهرة، بعد ان امضى في باريس قرابة خمس سنوات في التعليم والاكتشاف والتأمل.

وخطاب رفاعة عن مدن الغرب هو اعجاب يحف به الحياء في بعض الصفحات من الاعتراف الصريح بعجز الذات التي جعلت من التراث نداً لهذه الحداثة حثيثة الخطى وهي تخلق عالمها على الرغم من كل ما احاط بها من ضجيج وفوضى، ولكن هذه الحداثة الباريسية ماضية في خلق عالم جديد محسوبة نتائجه: "ومما يبهر العقول في باريس دكاكين الكتبة (المكتبات) وخاناتهم وتجارات الكتب. ص,١٩٨" تبلور هذا الخطاب في ثلاثينيات القرن التاسع عشر وكانت اوربا قد استفاقت على نهضة اطلقتها القوة البخارية والاكتشافات العلمية وانتظامها إلى فسلفة العقل، وها هي اوربا الحديثة قد ودعت حروبها القومية الشرسة لتستفيق على تطورها الحضاري الحثيث. وقراءتنا هذه لكتاب (تخليص الابريز في تلخيص باريز) لا تعتمد نقداً مباشراً لأفكار مؤلف الكتاب، لأن ذلك يتطلب اصلاً قراءة الطهطاوي، الذي يرى فيه الدكتور عفيف فراج احد ابرز المؤسسين للفكر النهضوي العربي، وقد سبق د. طه حسين وسلامة موسى ورئيف خوري ولويس عوض، حيث يقول عفيف فراج عن الطهطاوي: ".... ان الطهطاوي في جانبه الايجابي، هو رائد تعليم البنات والبنين سواء بسواء، ونصير حق المرأة، لا في العلم وحسب، بل في العمل ايضاً". ثم يؤكد فراج اهمية تربوي بارز مثل الطهطاوي بقوله: "ان الطهطاوي هو في الواقع مؤسس في المعنى التربوي، وهو التنوير الذي يزيح الستارة عن مسرح الحضارة".

لهذا فقراءتنا هذه سوف تعتمد جانبها الاستكشافي الذي حددته مقدرة الطهطاوي في الوصف الذي يتقدم معلومات الكتاب كلها، أي مواجهة المؤلف للمدينة وهو يراها ويكتشفها للمرة الاولى، ونحن هنا، نحاول فرز معنى الرحلة عن السيل الكبير الذي تضخه المطابع العربية من كتب السيرة الذاتية. ان الرحالة العرب يستندون إلى تاريخ عريق كما ذكرنا في هذا المقال، بدءاً من ابن بطوطة وابن جبير حتى الطهطاوي الذي يقدم لنا هنا حقيقة رحلته وما فرضته عليه لحظاته الاستكشافية من تغيرات ذهنية وربما عقائدية ايضاً، سنجدها بارزة في عودته إلى مصر ومحاولته التأثير في الحياة اليومية للناس ومواجهة افكاره مع متغيرات الحياة في العقد الثالث من القرن التاسع عشر، وخضوع تلك الافكار إلى الامتحان الذي تتعرض له كل الافكار الجديدة حين تواجه الافكار القديمة البالية، هذا الصراع الذي خاضته افكار الطهطاوي المستنيرة نتيجة رحلته الرائدة إلى باريس واكتسابه الخبرة والتجربة والمعرفة هنا، هو الذي جعل منه احد رواد النهضة العربية، لذا لا غرابة ان اطلقنا على تجربته في كتابه هذا نعت الكتاب الرائد والرحلة الرائدة.

كان الوصول إلى باريس عبر البحر امراً محتوماً، ولم تكن فاعلية الرحلات العلمية إلى اوربا ماضية في تأسيس اتجاه او مدرسة تختص باكتشاف عالم جديد سنضطر للتعامل معه بخصوصية شديدة لامتيازاته الواضحة، ولكن ما هي امتيازات كتاب رفاعة الطهطاوي، التي دفعتنا لتناوله هنا؟ ان ذلك يحتم علينا اولاً الاعتراف بريادة هذا الكتاب باعتبار هذه الريادة واحدة من امتيازاته وتفوقه على كتابات تجاوره في الشكل الفني او الهدف، ولعل الميزة الثانية للكتاب، هي تجاوزه للصيغ المتعارف عليها في الكتابة عن جانب من السيرة الادبية دون الجوانب الاخرى، اما في هذا الكتاب، فقد شملت تجربة الطهطاوي مرافق الحياة الباريسية كافة، حيث قدم وصفاشيقاً وشاملاً لرؤيته وتصوراته، واذا استعرنا من اشارات الطهطاوي بعض خطوطها فسوف نعلم أي عالم غريب تقحم الرجل من اجل الوصول إلى غايته: "... كانت مدة مكوثنا في البحر ثلاثة وثلاثين يوماً. ص٤٦" كل ذلك لكي يحط المسافرون الرحال في مرسيليا ومنها إلى باريس بعد اجتياز البحر انطلاقاً من اسكندرية مصر، فاذا قدرنا مدة المكوث في البحر تتجاوز الشهر من الميناء المصري حتى ميناء فرنسا، فاية وسائل نقل وحركة بطيئة كانت تحت تصرف الناس انذاك؟، أي قبل ١٨٢٦ سنة مغادرة الطهطاوي بلاده وعلينا ان نتخيل عوامل التعرية والتبدلات النفسية لدى المسافرين؛ ".... وقد امتطينا سفينة حرب فرنساوية ص ,٣٩" تلك هي الوسائل المتاحة امام المسافرين للتنقل في هذا العالم المترامي. ولعل ما يميز هذه الرحلة / الكتاب انها تخرج عن طبيعة الصيغ المتعارف عليها، في كتب السيرة الذاتية او المذكرات الادبية التي ترتكز على طبيعة واحدة للسرد، فالابريز يعد تجاوزاً لصيغ ادب السير إلى ادب الرحلات حيث اعتمد الوصف نهجاً في الكتابة وارتكز على ذلك في معالجة الصورة الخارجية بحيث كنا نقف امام لوحات عريضة في تحقيق المشهد عبر الوصف. وقد استبدل الراوي ضمير الانا الشائع في كتابة المذكرات والسير الذاتية، إلى صيغة الهو والهم، أي كان خطابه الوصفي يشمل المدينة والناس بل والحياة في باريس كلها. ان الوصف ذو طبيعة محايدة اصلاً ولا يمكن الا ان يكون موضوعياً. ان ميزة كتاب الابريز ليس في نهجه الرائد، بل لأنه ركز على العالم الموضوعي المحيط بالعين المستكشفة للمشهد الاوربي، لقد كان الطهطاوي حريصاً على اعادة تشكيل المشهد، ومن رؤيته الخاصة يجري هذا من خلال مبدأ التزين والتقبيح - أي سلوك طرق المفاضلة والقياس - بين ما يعيشه في باريز وبين ما عاشه في مصر، وسيكون الاسلام بما يحمله من اعتبارات وقيم وتجارب قاعدة ثابتة لدى الطهطاوي في عقد سلسلة عن المقارنات بين ما يراه ويلمسه في باريس وبين قيم واعتبارات تراثية يحتفظ بها في جوانحه وفكره وعقله. وعن هذا النوع من الاحكام الصادرة من الرحالة العرب الذين اتجهوا إلى اكتشاف اوربا، اشار الدكتور حسين محمد فهيم في كتابه: ادب الرحلات. ص١٩٢، ما نصه: "وفي اطار صحوة القرن التاسع عشر والرغبة لدى المسلمين في الخروج من قوقعة الانغلاق والانفتاح على ما جاء به - للحضارة الانسانية - شكلت الرحلة دوراً رئيساً في محاولات كشف العرب لأوربا في ثوبها الجديد، وهكذا بدأت مدة اخرى نشطت فيها الرحلة العربية نشاطاً كبيراً إلا ان مقصدها كان خارج ديارها." فالماضي العربي والتعلق بمنجزات التراث الاسلامي، خصوصاً الجانب الآسر منه لشخص الرحالة، يصبح هذا العامل (التراث العربي الاسلامي) مدعاة للدفاع عن الذات من خلال عقد سلسلة من المقارنات بين الحضارة الغربية وبين ذلك التراث.. ان الطهطاوي الذي استمر بارتداء زيه الشرقي وتصرف كعربي في باريس وقد اصر على الحفاظ على تقاليد ديانته الاسلامية ووصاياها، عاد إلى مصر - كاحد دعاة المدنية والمبشر بديمقراطية بدائية، ولقد وجدنا كيف عملت هذه الرحلة على دفعه خطوات نحو التقدم والمناداة بالتطور والاخذ بسنته وقوانينه، وقد ذكر الناشر في معرض حديثه عن رفاعة الطهطاوي في الغلاف الاخير للكتاب: "... لم يكن رفاعة منادياً بالتطور، بل كان مساهماً في ذلك عندما انشأ مدرسة الالسن ونهض بالصحافة... وعمل مترجماً في مدرسة الطب ومدرسة المدفعية وانشأ اول متحف للآثار الوطنية ودافعه في ذلك هو ضرورة تجديد الحياة في مصر وتطوير مؤسساتها وقد ادرك منذ سن مبكرة قيمة الحوار بين الثقافة العربية وغيرها من ثقافات اجنبية".

لقد منحته الرحلة فرصة التشوف والمقارنة الرصينة بين ما توصل اليه الغرب وما يعيشه ويعانيه الشرق من تخلف، بل وانهيار في القيم والآمال.. لا شك في ان رفاعة الطهطاوي كان يحمل موقفاً او تصوراً مسبقاً عن الحياة في بلاد الغرب هي نظرة العربي إلى الاجنبي باعتباره غريباً وغامضاً ان لم يكن مريباً او عدوانياً ما دام في وضع ملتبس كما يراه العربي المسلم، غير ان المعايشة اليومية غيرت الكثير من هذه التصورات، لذا يمكن اعتبار كتابه هذا تأملاً طويلاً في مكونات الحياة الباريسية في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، لذا فلا عجب في ان يعاد طبعه اكثر من ثلاث مرات وفي سنوات متعاقبة، اضافة إلى المكانة اللائقة التي تمتع بها الطهطاوي بعد عودته إلى مصر وهو الذي ارسلته الحكومة المصرية واعظاً وحكيماً مع البعثة الطلابية المصرية لطلب العلم، لكنه تحول من واعظ إلى مؤلف احد افضل الكتب في مجال الرحلات.

كثير من الكتب والمؤلفات التي تقع موضوعاتها في مجال الرحلات العلمية والاستكشافية والثقافية العامة، تعتبر حجاً إلى تلك البلدان، أي اقتناصاً للمعرفة والتعلم والاستفادة المرتجاة من اكتساب الخبرة وسعة الاطلاع وتعميق التجربة الذاتية. حيث يواجه الرحالة / المؤلف عالماً جديداً عليه ويكتشف انماطاً وسلوكات قد تبدو غريبة للوهلة الاولى، غير انه ليس كل من ارتحل وسافر إلى بلدان بعيدة او قريبة يمكن له ان يعتبر رحالة او مكتشفاً لحياة مغايرة وللحياة المتعارف عليها في وطنه وكثير من طلبة العلم او رواد السفر لم يتمكنوا من كتابة صفحة واحدة عن معايشتهم لبلدان بعيدة عن اوطانهم وغريبة في عاداتها وسلوكها عن طرائق عيش شعبهم، ومع هذا لم نلمس منهم إلا الصمت ازاء ما عاشوه في رحلاتهم وان تعددت، ولعل احد اسباب ذلك هو عدم وضوح الهدف او المعنى لديهم، ان لم يكن شحة المخيلة وضيق الافق، اذ عادة توجد اسس تعزز تلك الرحلة او تحدد سماتها من خلال تلك الاسس، ولعل من اهمها هي الغاية او الهدف الذي من اجله قامت الرحلة تلك، وعندما يشخص الرحالة الهدف المركزي للرحلة فانه سيحصل على نتائج باهرة وسوف نتلمس الخصائص الذاتية التي تميز رحلته عن غيرها. ولما عرف عدد من اصدقائي، انني انوي تقديم قراءة عن كتاب رفاعة الطهطاوي باعتباره احد الكتب الرائدة والنادرة في وقته في عالم الرحلة إلى الغرب، اقترحوا على تناول رحلة رائد القصة والرواية في العراق محمود احمد السيد إلى بلاد الهند في مطلع القرن العشرين، وما عاشه وعاناه السيد عبر تلك الرحلة التي لا تقل اهمية عن رحلة الابريز،.. ونحن بدورنا نقول، ان الدوافع الوطنية والذاتية للكتابة عن السيد يمكن لنا تبجيلها واحترامها، لكن موضوعة السيد ورحلته إلى الهند، تبتعد كثيراً عن موضوعتنا في التصدي المقصود للرحلات التي تتعدى الطابع الذاتي إلى جانب موضوعي اوسع افقاً واكثر مقدرة في الامتداد الرحب في الحياة التي نجهلها عن تلك البلاد. والطهطاوي خلاف السيد (الذي جاء إلى القاهرة للعلاج فيها لكن مرضه العضال اودى بحياته فتوفي السيد في مصر في ١٠ كانون الثاني ١٩٣٧) قد قدم وصفاً لرحلته ولم يفرض ذاته كما فعل السيد حيث خاض في ادب السيرة الذاتية المليئة بالانطباعات والتوصيفات الشخصية، لذلك تعتبر روايته ((جلال خالد)) رواية سيرة اكثر منها تعبير عن مرحلة وعالم واسع. ناهيك عن طبيعة البلدين (فرنسا والهند)، فالهند التي تحدث عنها السيد ليست هي فرنسا وليست بانجازاتها الحضارية (في ذلك الوقت) كما هو الحال في فرنسا، التي كتب الطهطاوي عن الحياة في عاصمتها باريس، فقد استطاع الوقوف على جوهر الحياة الباريسية بكل انماطها واشكالها والتي وجد رفاعة فيها تميزاً واضحاً عن الحياة التي تركها خلفه في القاهرة: ".... ثم ان هذه المدينة - يقصد باريس - من اعمر مدائن الدنيا ومن اعظم مدائن الافرنج الآن، (يقصد في نهايات القرن التاسع عشر) وهي كرسي بلاد الفرنسيس وقاعدة ملك فرنسا، وسيأتي تفصيل ذلك في محله. ص٥٩) ويبين لنا هذا الاعجاب كجزء من اقرار حقيقة تقدم الغرب، ان الرحلات العربية إلى اوربا لم تكن كافية لكي تترك اثاراً في الحياة الشرقية كما هو الحال مع الرحالة والمستشرقين والمبشرين الاوربيين، وسنرى ان العلاقة (بسبب الكشوفات التي قام بها الرحالة والمستشرقون) مع الغرب واكتشافه للشرق بدأت مع محاولات البرتغال والهولنديين في العثور على اسواق جديدة لبضائعهم، لذا تعتبر قديمة جداً على حد اقرار الاستاذ عبد الفتاح ابراهيم في كتابه القيم (الطريق إلى الهند) حيث يعقد مقارنة بين طبيعة البدايات الاولى لدخول المستعمرين إلى مدن الشرق لتصريف البضائع وبين التأثيرات اللاحقة لنمط التجارة وتقدمها عن المطامع السياسية التي راحت تتبلور في عقول الساسة الغربيين: ((وكان الانكليز قد وجهوا انظارهم في اواخر القرن السادس عشر إلى طريق الفرات للتوصل إلى مغانم المتاجرة مع الهند فالفوا الشركة التركية، التي ارسلت بعثه لدرس هذا الطريق، مرت عام ١٥٨٣ بطرابلس الشام وبغداد والبصرة وهرمز ووصلت البعثة جاوه، لكن اعضاءها هلكوا في هذه الرحلة الشاقة ولم يعد منهم غير واحد وصل انكلترا عام ١٥٩٠ يحمل كل ما تمكن من جمعه من معلومات، والمظنون ان رجال هذه البعثة كانوا اول من دخل ارض الرافدين من الانكليز. ص٤٤)). من الواضح ان الغايتين مختلفتان اختلافاً لا لبس فيه، فغاية البحث عن الاسواق او ارسال بعثات تبشيرية واستكشافات مقصودة ومخطط لها من قبل دوائر الغرب، وبين رحلة من اجل المعرفة والثقافة والتعلم وزيادة الخبرات لدى المتعلمين والادباء والرحالة الآخرين من طلبة العلم ومن هواة الرحيل والسفر، ان الاخيرة تبدو لنا في غاية الشفافية وجزءاً اساساً من الرغبة والتصميم في البحث الذاتي لدى مثقفي المشرق عن اصول الحضارة الغربية.. ان الوقت او العصر الذي عاش فيه رفاعة الطهطاوي لا يسمح بعقد مقارنة بين الحضارة او المدينة الاوربية، وبين حياة العرب في مطلع القرن العشرين ونهاية القرن التاسع عشر، وان صورة باريس تصبح في غاية الطرافة اذا ما قارناها مع اية مدينة عربية، فكيف الحال، والطهطاوي لا يكف عن عقد المقارنات المستمرة بين تقاليد العرب المسلمين وبين تقاليد الافرنج والفرنسيين؟ وبين ما توصلت اليه باريس وما يكتشفه فيها في كل يوم؛ "وبالجملة فالتدفئة في الشتاء عند الفرنساوية جزء من المؤونة، فهذا ما يستعينون به على البرد او ما يستعينون به على التوقي من ضرر المطر، فهو المظلات المسماة في مصر: الشمسيات ص٦٦"، وعقد المقارنات صفة لازمة في رحلة الابريز، بين المفاضلة والتزيين وبين التقبيح والاستهجان. "ولم يسمع في بلادهم عند ملوكهم ووزرائهم شيء ولو يسير مما عند بني العباس والبرامكة اصلاً. ص١٦٦"، لكن هذا ليس كل ما يحمله لنا تخليص الابريز بين صفحاته، حيث نجد ان الكتاب يتحول بالتدريج إلى مشهد متكامل، ان حب الاستطلاع والبحث عن المعرفة غريزة انسانية وقد لا نكتفي في طرح المزيد من الاسئلة التي قد نجد لها اجابات شافية وقد لا نعثر لها على اية جواب يشبع رغبتنا في الاطلاع على مختلف جوانب الحياة اليومية في تلك البلدان البعيدة.

لعلنا في هذه القراءة التي اردنا لها ان تكون متأنية لكتاب (تخليص الابريز في تلخيص باريز) لم تكن متأنية كما خططنا لها، بل جاءت تغص بالاشارات والملاحظات التي ارتكز بعضها على مبدأ التزيين والتقبيح، وهو مبدأ سيأخذ به كل وافد إلى بلاد الافرنج في مطلع القرن العشرين، وفي الحقيقة، جاءت هذه القراءة اختباراً للنظرة التي حددها كتاب الطهطاوي، وهي نظرة العربي المسلم الذي لا يكف عن وضع دينه وقوميته حجر اساس في كل قراءة يقترحها الواقع الاوربي شأنه في ذلك شأن المستشرق الذي لا يكف عن النظر إلى البلاد العربية إلا على اساس قراءته للموروث الاسلامي والعربي، ولعل الف ليلة وليلة وما عرفت به من حكايات تطرقت إلى عالم الانس والمجون والافراح والمسرات من ابرز الشواهد الثقافية لديه، وانه لا بد سيلتقي هارون الرشيد وهو بصحبة جواريه الحسان في أي منعطف او زقاق، (لم نشأ التعرض إلى هذه الثنائية المعروفة بين المثقفين العرب الذين يتذكرون المقولة الغربية الشهيرة: - الشرق شرق والغرب غرب - حيث اعتبر الشرق مجرد مسرح خيالي بينما الغرب يصنع الحياة على طريقته الخاصة، بل راح العديد من المفكرين والمثقفين الاوربيين ومن بعدهم العرب يعتبرون الشرق مجرد عالم طفيلي يعيش على انجازات الحضارة الغربية، وانه عالم مليء بالسحر والحكايات التي لا بد لها من ان تذكرنا بالف ليلة وليلة وعوالمها الحالمة، الغرب المادي والشرق الروحاني، هي الفكرة التي عاد بها رفاعة الطهطاوي إلى مصر لكي يميز بين حضارتين متناقضتين. ولأجل المزيد من المعرفة بطبيعة فهم الطهطاوي لهذه الثنائية يمكن للقارئ مراجعة مجلة الطريق اللبنانية عدد (٤ تموز - اب ٢٠٠٣ ص ٥٢ / ٥٣) هاتان النظرتان لا تمتان إلى الحقيقة بصلة او رابطة عضوية، فليس المقارنة هي المثال النادر، بل نقلنا للمشهد بما هو عليه وبصورة تخلو من الميل العاطفي او الديني او القومي لئلا نضفي على المشهد ذاك صوراً خارج نزعته او حقيقته، بل ان عين الكاميرا هو الاصطلاح الملائم في نقل صورة او مشهد غريب عن عالمنا او تجاربنا السابقة، سوف يعيننا على اعطاء صورة متكاملة عن رحلتنا او مشاهداتنا. غير اننا حين توصلنا إلى كيفية تعامل الرحالة / المؤلف ونظرته إلى الحياة الفرنسية، انما ادركنا جوهر ذلك التعامل وتدرجه في الاعجاب وانه لم يأت اعجاباً انفعالياً دون تدقيق او تمحيص انما نتيجة للمعايشة اليومية واكتشاف الحياة الباريسية يوماً بعد آخر، حتى استطاع وضع يده على مجموعة ملاحظات واراء تخصه وحده بحيث قدمها لنا في تخليص الابريز الذي وجدنا فيه كتاباً جديراً باعتبارنا له الاول في مجال الريادة؛ وانه ابرز نوع جديد من كتابات الرحالة، على حد تعبير احد دارسيه، فالكتاب في الواقع قدم لنا نظرة الرحالة المسلمين في السنين المنصرمة ما جعل هذه النظرة حجر اساس للدراسات التي جاءت بعد كتاب الطهطاوي في القياس والمفاضلة بين نمطين من التفكير والسلوك الحضاريين، رغم ان الحضارة الاوربية التي لم يتردد رفاعة الطهطاوي في اعلان اعجابه بها او التصريح باهميتها شأن رواد النهضة العربية الذين حالفهم الحظ في خوض تجربة مشابهة لتجربة الطهطاوي، لم تستطع هذه الحضارة والمدنية الاوربية استلاب رفاعة الطهطاوي الذي حافظ على مستلزمات المغايرة والاختلاف، بدءاً من الملبس والمظهر وانتهاء بانحيازه إلى الخصائص العميقة والمؤثرة في حياة الباريسيين واهتماماتهم الجادة والخلاقة والتي راح يتعرف عليها وينغمس في تيارها: "... ومما يبهر العقول في باريس دكاكين الكتبة - يقصد المكتبات - وخاناتهم وتجارات الكتب فانها من التجارات الرائجة مع كثرتها وكثرة المطابع وكثرة التاليف التي تنطبع كل سنة بمدينة باريس الا ويخرج من المطبعة كتب معدومة النظير، واعتناؤهم بالمعارف هو احسن ما ينبغي ان يمدحوا به. ص١٩٨". لقد اصبح القياس لديه واضحاً والمفاضلة لا غبار عليها، ان ما توصل اليه من اعجاب محافظ بالمعارف والعلوم والفنون وتوصلات الاوربيين إلى حقائق تخص الانسان وطبيعة حياته اليومية الجادة وان هذه المفاضلة بنيت على اساس، المدهش والعميق والمؤثر في الحياة الاوربية ومدى استفادة العربي المسلم من تلك الحضارة الصاعدة، دون التورط في مظاهرها الخارجية البراقة، لقد كانت النوايا تتجه لدى الكثير من الرحالة العرب، في ان تقوم الاقطار العربية بنقلة نوعية في حياة الناس، خطوة تقدمية وانسانية واضحة المعالم.

الكتابة في الكتابة

عباس منعثر

ليس ثمة من لا يتعرض إلى خداع الكلمات. الخدعة بالأصل كلمة. من لا يخدع لا يقرأ. الخداع ضرورة قراءة وتبن، ودونه تصبح مرورا على كيانات مادية لا اثر لها. يتناوب الكتاب والقراء خداع بعضهم على وفق تقاليد ثقافية تطوق الطرفين. إلا أن الكاتب الحقيقي (الصانع) هو الأكثر اتقانا للخداع، والقارئ الحقيقي (الفعال) هو الأكثر انخداعا من غيره ...ذوو العقول المدمنة على الحرف مخدوعون أحيانا: هم يضيفون على المقروء شيئا من ذواتهم وكثيرا من خيالهم. هذه الإضافة تنبع أحيانا من جسد المكتوب وأحيانا تستلف إليه من خارجه، وبما أن الغرابة والإضافة ميل غالب فإنها أضحت جوهرية إلى درجة أنها تماهت جوهريا بالكتابة. هنا قد تعارض وتناقض بنية المقروء نفسه (ترى كيف تأتى للكتب المقدسة البقاء؟) وعلى العكس، ينحو بعض المدمنين إلى تقليم أظفار المقروء حسب (قراءة آثمة) مشكلة على نوع من (سوء طوية) مقصود أو لا موعى به. وبرغم كل القدر الهائل من الافتراض الأكاديمي (فهم، تفسير، تأويل، إيحاء) إلا أن للمقاييس قدرة على الخروج من بوتقة النظام والعقل.

بعض القراء، الأكثر نباهة، لا ينخدعون بسهولة، ويتجهون إلى الفلسفة ليمارسوا خداعها المنطقي. وبعضهم يتجه إلى العلم لكشف الخداع أو تقنينه في قوانين عامة في الأقل. أما الأدباء فإن خداعهم الأكبر هو الكذب في النفس والعالم. أساس فعل الكتابة : التخيل، افتراض غير الموجود، ربط علاقات وهمية، صوغ كيانات خيالية، لتعكس أو توحي أو تؤول ولتربط في الأخير بكيانات العالم وعوالمه. عندهم (أي الكتاب) نزوع هملتي-نسبة إلى هملت- لفعل الذهن على فعل الجسد. الكلمة تكتفي عندهم بالتفوه أو التحبير حيث يمكن الوصول إلى النهايات من دون نأمة. والكتاب بائعو كلام، فالحركة من دون حركة توقع في وهم الحرية والفعل. بالتالي نتيجة التقوقع المستمر في عالم التجريد الخيالي تنفصم العرى مع العالم في الوقت نفسه الذي يعتقد الكاتب أقامتها معه. يفسر ذلك، جزئيا، تلك العزلة (الاختيارية أو القسرية) اللصيقة بالكتابة سواء عند الإنشاء أم التفكير فيه. الكتابة فعل فردي يتقيد فيه الجسد في مكان محدد، وتنفصل فيه الذات عن باقي كيانات العالم، رغم أن إنتاج أي منتج لا يمكن أن يقطع الصلة تماما عن السلالة الأدبية أو الإنسانية إلا أن في لحظة الإبداع ما هو خاص بذات واحدة متعرية أمام كينونتها الخاصة.في الكتابة يعمل المخ الثابت، والأصابع تتحرك قليلا بما يكفي لخط الكلمات (أو طباعتها حسب التقنيات الحديثة أو مجرد التفوه بها حسب التقنيات القادمة). هكذا تتوطد العلاقة بين الحركة الكتابة التي هي نتاج السكون والوحدة في الأعم الأغلب. يعمم ذلك على حركة الكاتب- الإنسان بين الناس، إذ انه يدخر الطاقة الفائضة والجوهرية للتأمل. أما الرجل-غير الكاتب- فأفعاله عبارة عن حركة مستمرة تفقد فيها جل الطاقة أو تصرف بالعمل والكلام والأكل والضحك والسفر، مما لا يتبقى إلا الأقل للتأمل، وحتى هذا يتمحور حول العملي (التجاري، التسوق، هموم العائلة والجسد).. وهي مسألة طبيعية: لا الوقت ولا المقدرة الجسدية ولا الاهتمام تدفع المرء للتفكير بطريقة الكاتب، والاهم : ليس ثمة رغبة أو هاجس لتحويل التأمل إلى كلمات. النظرة الواقعية تنصب على الأفعال والمسافة ضئيلة بين التخطيط لعمل وإنجازه. و لربما يتكلم الناس كثيرا، يأكلون كثيرا، يمارسون الجنس، يتحركون ليتخلصوا من معاناتهم، أما الكاتب فيصمت يخزن يرى يدخر ليكتب.

الكتابة نتاج الكسل

(هذا الفعل الكسول قد يغير العالم / ولا جدوى من إضاعة الوقت في فعل كهذا). وجهتا نظر متعاكستان يمكن ضرب الأمثلة الكثيرة على تبنيهما حسب موقع الفرد من وسطه الحضاري وحسب نسبة الجدل التي يضفيها على الأشياء. ولا يمكن حسم الاختلاف بين وجهتي النظر بقرار علوي، ولم يتمكن أي مجتمع من إيصال أفراده جميعا إلى قناعة متأصلة بهذه الفكرة أو تلك. فعملية نمو الخيال الأدبي منذ الصغر تبدأ (بالكذب على شكل تخويف للطفل أو إيهام أو قص حكايا) ثم قد يحبط النمو أو يتواصل (بالتلفاز والسينما والسياسة) ويتأجج وينضج ربما حين يقوقع المرء نفسه أو يحس بالانتماء إلى وسط ثقافي ما. قد يؤدي التصدر الاجتماعي أو المكاسب المادية إلى التشجيع على الاستمرار أو التوقف.

وليست للتقدم التقني- الحضاري حتمية في حسم المسألة. إن حياة صاخبة تقلل النزوع إلى التأمل ثم الكتابة إلا أنها لا تعدمها تماما. لا يمكن خلق الخيال ولا يمكن افناؤه. فبرغم ما وصل إليه الغرب من وسائل الترفيه والاتصال التي قد تستهلك العمر كله، فإن ثمة أناساً معزولين مازالوا يمارسون فعلا محرما اسمه الكتابة فينتج هنا أو هناك كذابا كبيرا يقص ويكتب الشعر ويتخيل. وبالعكس قد يحجم التخلف الحضاري من ممارسة الكتابة بسبب الأمية وطغيان التفكير العملي (الكسب) على غيره، إلا انه هو الآخر ينتج كسالى قد يفوق عددهم التصور، والكسل بدوره ينتج كذابين عديدين يندر بينهم الكذاب الكبير.صحيح أن العالم (صوري) أكثر مما يمكن أن نتصور، وصحيح أن التقنية الحديثة تجهز المرء بما يتجاوز الخيال، لكن، برغم تقلصها، إلى حد مهول، هل توقفت الكتابة؟ لا، ولن، لان الكتابة بعد أن ولدت، التصقت بالوجود، بالحضور الذاتي للمتكلم، بسطوته، بأحلامه، بالكلام، واقتربا، برغم ما يبدو من اختلاف، إلى التطابق، بحيث أصبح الكلام كتابة في الهواء، والكتابة تتبع للكلام ...هذا ما يود أن يقتنع به الكتاب. ثم إن النزوع إلى الخلود لا يتوقف عبر الصورة أو عبر الكلمة المكتوبة. الكتابة شكل من خلود الزائل يهرع إليها المرء خوفا من الفناء. لا شيء يبقى: الجسد ينتهي بسبب عمر الخلايا الزمني المحدود، وما يخلفه المرء: أفعالا عظيمة، اكتشافا علميا، أو كلمة تقص ألماً وتشير إلى زمن. وحالما يضيق العالم ويتيبس، يلجأ إلى الحركة وإشغال الذهن أو التحبير. وقد تنتهي الكتابة يوم يتلاشى النزوع إلى الخلود، أو حين تكتفي الحياة بالرموز والإشارة أو الحنجرة. وهو ما لا يمكن لأبناء الحضارة الحية الآن تصوره، خاصة مدمني الكتابة، برغم أن خيال بعضهم يذهب إلى ابعد من ذلك بكثير: سيكف العالم عن الكتابة حالما يكف عن الحلم.

ومما لا يعجب الكتاب أن يسمعوه هو أن أناسا كثيرين، لا يتخيلهم المرء، قد عاشوا و تزوجوا وأنجبوا وسافروا وكبروا وهرموا وماتوا من دون أن يقرأوا كتابا واحدا في حياتهم الطويلة. وقد يحلو للكتاب وصمهم بالهمجية، إلا أنهم وجدوا على أية حال وتمتعوا بحياتهم، أكثر ربما، من أولئك التعساء الذين فاتتهم حياة الأرض وخلقوا حياة ظنوها الأسمى، واكتشفوا، أو لم يكتشفوا، في شيخوختهم فقط وبعد فوات الأوان، أنهم خدعوا أنفسهم وهدروا حياتهم فيما لا يستحق. العالم عملي، والناس اكتشفت أن الحياة اقصر مما ينبغي، والسعادة بعيدة، لذا أسرعت في هرولتها لتعب من اللذة الحسية في أقصى تخومها، وكلما ازدادت السرعة تضاءلت فرص التأمل واختفت فرص الكتابة بالضرورة.

وقد يعتقد المرء أن الكتابة هبة من فوق. والكتاب سحرة أو حالمين، وقدرتهم حكر عليهم، على المسوسين، الذين يثيرون الإعجاب والشفقة. هؤلاء بطرون لا يرون حقيقة الأشياء- باعتقاد رجل الشارع - فيتجنب قليل النزوع إلى التأمل وكثير الحركة هذا العالم ليلمس الأشياء بيديه ويتذوق بفمه، تاركا الخيال لأهله والكذب لمدمنيه.وشيئا فشيئا يقل أنصار الكتابة ويبتعد الناس عن الكلمة، وتزداد الهوة اتساعا لتصل إلى الاغتراب الكامل بين (مجتمع الكتاب) و (مجتمع الناس الآخرين).. فلمن يكتب الكاتب إذا لم يعد هناك قراء؟؟ لكن ثمة من يكذب بعد، أو من يعتقد أن الكتابة كالهواء لا يمكن الاستغناء عنها (هناك شك في عدم الاستغناء عن الهواء قد تصادق عليه القرون القادمة).

ويا للمفارقة الكبيرة حيث كان الأسلاف يعتقدون بخلود الكلمة والبدء بها، يحاول الأبناء أن يحلموا ببقائها مع كل الخسائر الفادحة. يغري شكسبير حبيبته في السونيتات بأنها ستخلد لا من خلال حضورها الجسدي بل من خلال كلماته. كان طموح شكسبير كبيرا. هذه الصورة تكاد تختفي الآن، فالحبيب يتطلب فعل الجسد يريد أن يلمس ويرى ويتذوق تبعا لعامل الشفافية. فهل يغري كاتب الحاضر بالخلود عبر الكلمة التي تعاني هي نفسها خطر الانقراض.

في عصر تزداد فيه فتحة الأوزون، تستنسخ فيه دولي، تتوالى الاكتشافات العلمية كالمطر، تزداد الأديان يقينا بفناء العالم.. من يبق الكلمة يصارع من اجل خلودها، وإذا فني العالم فما بال مكون جزئي فيه.. ألا يفنى هو الآخر؟؟ لحسن حظ العائشين الآن أنهم لن يروا تلك اللحظة، وسيرضيهم - عبر الحدس - أن يدافعوا عن وجودها، إلى أن يأتي من يرى فناءها بأم عينيه ليدافع عن بقاء الإنسان.